ضافي الجمعاني

صفحات سوداء

من تآمر النظام السوري على بعث العراق



منشورات الطليعة
2010

صفحات سوداء

من تآمر النظام السوري على بعث العراق

ضافي الجمعاني

عمان - الأردن - شباط/فبراير 2007



إن موضوع المؤامرة على العراق هو الحلقة الأخيرة من سلسلة حلقات ناجحة على مصر وعلى سورية، على المضمون المقاوم للإنسان الفلسطيني، والعربي المحيط بفلسطين. ولكن المؤامرة على العراق هي الأهم ليس لصعوبتها في ذهن القائمين على المؤامرة، ولكن لأنها الحلقة الأخيرة في هذه السلسلة التآمرية الناجحة، التي بعد نجاحها يكون مصير العرب قد تقرر إلى مدى غير منظور، فالمغرب العربي ممسوك، وكذلك وادي النيل، وبلاد الشام، أما الجزيرة والخليج فليست ممسوكة فقط، بل وتقاتل بالمهم الذي تملكه من مال ونفط، في صفوف الأعداء، فلم يبق إلّا العراق وهو غير قادر على الشذوذ عن هذه القاعدة أمام هذا الحشد من الأعداء، ولقد أسند الدور التنفيذي في المؤامرة إلى الحكم في سورية، لماذا الحكم في سورية؟.

لأن التوجه الاستراتيجي السوري إقليمياً، يستند إلى العداء المطلق للعراق، ليس العداء المجرد، لكنه عداء مضمونه الفعل لكل الطاقات السورية وغير السورية الموظفة لتحقيق هذا الهدف.

فإما الحكم في سورية ومشروعه المتبنى (أي هلال خصيب بمن فيه)، الذي يستدعي إسقاط النهج الاستراتيجي للعراق، ووضعه ضمن الخارطة السياسية المتصور فرضها، وإما العراق ومشروعه المضاد، وهذه قضية حياة أو موت بالنسبة للنظام في سورية ولمن يقفون في صفه، فليس هناك من دول الإقليم المجاورة من يمتلك عوامل التأثير على العراق أكثر من سورية.

فجغرافياً تمتد حدود العراق الغربية مع سورية مسافة ستماية (٦٠٠) كيلومتر، تسكن على جانبيها عشائر متعددة أصولها واحدة، وماء الفرات يصل إلى العراق عبر الأراضي السورية، ونفط العراق يذهب إلى المتوسط عبر سورية، ويمنع القطر العربي السوري العراق من الوصول إلى المتوسط متى أراد ذلك، لا نفط ولا تجارة، وسورية دولة عربية تدعو إلى الوحدة العربية إعلاناً، يحكمها حزب البعث العربي الاشتراكي (بغض النظر عن حقيقة هذا الحكم، وأيضاً بغض النظر عن إيديولوجية هذا الحزب الذي يقود السلطة) وهي تنشر كل دعاوى التضليل المطبوخة في مطابخ أعداء العرب ضد العراق، ويوظف النظام في هذا الميدان الحكام العرب ذوي التأثير المادي الكبير، ولا سيما دول النفط الذين يرتعدون خوفاً من تقدم العراق وقوته. إضافة إلى كل ذلك، ليس هناك من هو مؤهل للعب هذا الدور بكفاءة، إلّا القيادة في سورية، التي تستند إلى أداة حكم ليس لديها شك في شرعية قيادتها وعصمتها من الخطأ، هذه الأداة التي جاء تصورها مسبقاً لانفصال سورية عن مصر، علماً أنه بسبب هذا التصور المسبق، فشلت مباحثات الوحدة، ومن دون هذه الأداة لا يمكن أن يتحقق المشروع الذي سيجعل سورية مستقرة إلى الأبد. وهذا الرأي قاله أحد السجناء السياسيين، وهو

عسكري برتبة عميد من الطائفة العلوية، اسمه (شفيق عبده). حينما تسلم الفريق حافظ الأسد رئاسة الجمهورية قال العميد آنذاك شفيق عبده: إن هذا أمر خطير، فعامّة العلويين يؤلهون الحاكم العلوي. إن طائفة العلويين تشكّل ١٠٪ من الشعب في سورية، ومن المعروف أن أي حزب سياسي تكون نسبة منتسبيه ومؤيديه ٤٪ من مجموع الشعب، يستطيع الحزب أن يصل إلى السلطة إن كان بطريق ديموقراطي أو طريق ثوري انقلابي، إن كان معداً لذلك.

وهكذا توج المسار السياسي انقلاب آذار عام ١٩٦٣، بالاستلام المباشر للأداة التي تكونت عبر هذا المسار في ١٦ تشرين الثاني عام ١٩٧٠، فانفتح أمامها كل ما كانت محرومة منه في الحياة، وهو الكثير الكثير. ومن حينه أصبحت حريصة جداً (حتى بدون وعي منها) على موقفها هذا، فهي مع الأداة التي تضمن لها ذلك، هذه الأداة المنظمة والمتماسكة خلف قائدها، والتي ترفع شعار البعث عالياً (في الوحدة والحرية والاشتراكية) وتقول هذا هو البعث (فمن هو الذي يقول غير ذلك). لا يهمها في تلك المرحلة إلّا:

أولاً: البقاء في السلطة.

وثانياً: المزيد من المكاسب، وهي من أجل ذلك تبيح المحرمات، وأينما توجه القائد فهي خلفه.

وأنا هنا لا أستهدف التعريض أو اللوم لطائفة العلويين، فأناسها غير ملومين إطلاقاً، إنما يعود الأمر أولاً، إلى عصور الانحطاط وثانياً للقصور التاريخي لذوي السلطان منذ الاستقلال، وثالثاً للإستغلال الاستعماري لهذه الظواهر في العالم المستعمر، وأخيراً وليس آخراً، الشخصيات التي استغلت هذا الواقع لتحقيق مخططات سياسية معادية لإنسان هذه المنطقة، ولتخدم بالتالي مصالح القوى المعادية للحقوق المشروعة لمواطن هذه الأمة.

«الحركة التصحيحية» وتوجهها الاستراتيجي ضد العراق

لقد مر جهد القيادة في سورية من أجل إسقاط نهج العراق بمراحل عدة، فلم يجر

تآمر أجنبي في العراق إلّا وكان النظام في سورية على صلة به. ولم يحدث تدخل خارجي إلّا وكان النظام في سورية حليفاً له بكل طاقاته منذ الحرب العراقية ـ الإيرانية، وصولاً إلى حلف حفر الباطن سيئ السمعة والذكر.

بدأت المرحلة الأولى حين تسلم الفريق حافظ الأسد كامل السلطات بعد أن تسلم رئاسة الجمهورية، وانتهت بفشل حرب تشرين على الجبهة السورية. فلقد قام الرئيس حافظ الأسد بإحدى أولى زياراته خارج سورية إلى إيران، وهناك التقى شاه إيران وعبر له عن نواياه تجاه العراق، ولكن شاه إيران الذي يقيم نفسه وإيران عالياً، ما كان ينوي أن يؤخذ عليه تحالف مثل هذا، فأكرم الرئيس الأسد بأن منحه قرضاً مالياً! وهكذا نرى أن نية سورية بالتعاون أو التحالف مع إيران، كانت سابقة لـ«ثورة الخميني»، فلا تحالف شاه إيران مع «إسرائيل» عائق أمام هذا التعاون، ولا ادعاء الخميني بتحرير فلسطين عبر العراق دافع لهذا التعاون، وإنما الهدف استراتيجي لسورية: العراق نظاماً ووطناً.

حرب تشرين التحريرية؟!

إن الحروب بقادتها، وأقصد بذلك حروب التحرير. فمنذ الإسلام مروراً بثورة أكتوبر وحروب التدخل ضدها، إلى تحرير الصين وتوحيدها، وحروب التحرير الفيتنامية العظيمة، حتى أم المعارك الخالدة، والحروب ونتائجها مرتبطة بقادتها، لأن المبادئ هي التي تقود خطى المحررين المؤمنين الذين يقاتلون من أجل تحقيق هذه المبادئ التي يمثلونها، وتستهدف هزيمة العدوان والطغيان والاستعمار، وتنشد العدالة والمساواة.

إن الدلالات العميقة إنسانياً لهزيمة الاستعمارين، الفرنسي والأميركي الطاغي في أوج جبروته وتبجحه أمام إيمان شعب صغير فقير مؤمن، كالشعب الفيتنامي، لا يماثلها تاريخياً ضمن الواقع التاريخي لكل منهما سوى هزيمة الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية على يد العرب المسلمين.

إن هذين الحدثين التاريخيين يعطيان دليلاً أوضح من الشمس، أن هؤلاء البغاة المستعمرين، إذا ما واجهوا شعباً مؤمناً مهما كان حجمه صغيراً قياساً إلى حجومهم، وفقيراً قياساً إلى غناهم، وقوة روحية قياساً إلى خوائهم الروحي، فإنهم سيهزمون

الهزيمة المنكرة، كما حدث لهم أمام الفيتناميين المؤمنين بحقهم في الوحدة والحرية تاركين أحذيتهم على أسطح منازلهم.

أما حروب «إسرائيل» وبعض العرب المحيطين بها، فهي على شاكلة صانعيها، حروب مؤامرات ومتآمرين صغار، عرباً وصهاينة، ونتائجها على مستوى قادتها، صغيرة وهزيلة التأثير وهي من نوع الخنادق والكمائن المعوقة لوصول العرب إلى حقيقتهم التاريخية. إنني لا أنوي الحديث عن هذه الحرب (حرب تشرين) إلّا في موقعين:

الأول: إن السبب الرئيسي لهذه الحرب هو التسوية، حسب الرؤيا الأميركية ـ الصهيونية، التي منعها نهوض عبد الناصر إثر وقوعه أرضاً عام ١٩٦٧، ثم كان موقف خليفته أنور السادات (الذي أزالت جرافات الإمبريالية كل العوائق من أمامه للوصول إلى هذا الموقع الذي لم يكن أهلاً له)، كان موقفاً واضحاً (وهو الوصول إلى التسوية من واقع الحرب المُسيطر عليها). هذه هي استراتيجية أنور السادات الواضحة المستندة إلى رؤية وزير الخارجية الأميركي آنذاك، هنري كيسنجر، ولكن الأمر المحير للفهم هو حالة القيادة السورية وموقعها، هذه القيادة التي لا تقرأ ولا تكتب ولا حتى تسمع خارج رؤيتها لواقعها الذاتي، والتي يتمثل همها الأساس في كيفية البقاء في الحكم والحفاظ عليه، ليوفر لها إمكانية الصلة بكل مراكز القوى في العالم، (ليتحقق لها مشروعها المنتظر)، وهي لا تعي أن همها هذا لن يزول، بل سيكبر ما دامت لا تعطي ولو بقدرٍ قليل، المعرفة والوعي بالواقع السياسي والعسكري، وهي تواجه عدواً يحتل أرضها مدعوماً من أقوى مراكز القوى في العالم (إنني مقتنع أنها كانت تستهدف استعادة أرضها). أما أن تهمل الوعي الحقيقي لهذا الواقع إهمالاً مطلقاً، وتكون بمجرد دخولها (في صفقة العمر) مع أصحاب المشروع في الإقليم، هذا المشروع الذي آمنت إيماناً «تاما» أن لا ريب في تحقيقه، ومن هذا الإيمان كانت تنام على حرير أداتها، التي لا يأتيها الخلل من أي جانب من جوانبها، وتسخّر كل جهدها في ميادين نشاطها وفعلها كقيادة مسؤولة عن شعب، وعن وطن من أجل سد الثغرات فقط، التي قد تنفتح عليها في بعض الحالات في جدران أداتها، مقتنعة قناعة مطلقة أن كل خلل سيصحح حال تحقيق (مشروع الهلال الخصيب المنزوعة أحشاؤه).

ومن هذا الإيمان ازدادت عداوتها للعراق قبيل الحرب، هادفة من هذا العداء التمهيد

لتوظيف نتائج الحرب (وهو النصر الذي ستحققه والذي كانت تظنه مؤكداً كأحد العوامل الرئيسية ضد العراق)، لكن (حساب السرايا لم يتطابق وحساب القرايا) كما نقول.

إن القيادة العسكرية السورية منذ حرب عام ١٩٦٧، لم يكن يهمها نتائج الحرب، إلّا بالقدر الذي تقدمه هذه النتائج من دفع المشروع المعد مسبقاً لهذا الإقليم إلى الأمام، فهي لم تحارب عام ١٩٦٧، وتخلت عن المرتفعات السورية (الجولان)، كجزء من الثمن لاستمرارها في السلطة، في ظنها أنها في حرب عام ١٩٧٣ ستستعيد الجولان، وتوظف هذا النصر في خدمة مشروعها، ومشروع من هم ضد العراق، وكانت قناعتها مطلقة أن ذلك سيحدث.

إن القيادة السورية التي تصب كل اهتمامها (وليس جله) محلياً وعربياً ودولياً فقط، من أجل إظهار واقعها على غير حقيقته (الفاشية الطائفية)، وهي مكرهة على فعل ذلك، لأن مشروعها السياسي منذ ٨ آذار ١٩٦٣، الذي تسعى إلى تحقيقه متناقض تماماً مع (الأيديولوجية) المتبناة، أيديولوجية حزب البعث العربي الاشتراكي، ولا تستطيع ستر هذه الحقيقة وإخفاءها، إلّا بجهد متميز في الداخل إن كان قمعاً أو تضليلاً. إضافة إلى جهد أصحاب المشروع الذين يملكون وسائل مادية وإعلامية ومخابراتية قادرة، وهي قوى حلف الأطلسي وأتباعها من العرب والصهاينة، القادرين حتى على توظيف إعلام المعسكر الاشتراكي ومواقعه ومواقف مؤيديه في الوطن العربي بهذا الاتجاه، لخدمة موقف النظام في سورية، وكل ذلك من أجل جعل أداة النظام مقتنعة بقيادتها ومشدودة إليها.

وطبعاً هذه الصورة التي يقدمها الإعلام الغربي والمتأثرون به في العالم، مدفوعة الثمن سلفاً، بالضبط كما تدفع أية شركة ثمن إعلاناتها لإحدى الفضائيات التلفزيونية، إلّا أن الثمن هذا مختلف نوعياً، فهو يدفع من مصلحة سورية والوطن العربي، وكلما أصبحت البضاعة أردأ، ارتفع سعر الإعلان، وأنا هنا لا أتجنى، وسأورد مثالاً واحدا من عدة أمثلة على ذلك، قيلت في ندوة مفتوحة، أقامتها الجبهة الوطنية، التي يعلن النظام زوراً أنها صاحبة السلطات في سورية، وهذا القول للشاعر والمسرحي السوري ممدوح عدوان، وهو من الطائفة العلوية، قال: إن هذا النظام يكذب في النشرة الجوية، وفعلاً يكذب في النشرة الجوية، لأنه غير قادر على قول الحقيقة، فالحقيقة

مضادة لوجوده ولمضمون هذا الوجود، ومن هنا كيف يمكن للأفراد والقوى الفاعلة أن يتبقى لديها من الفعل والإرادة، ما توظفه في خدمة الهدف الذي تسعى إليه؟ وأقصد بالهدف: تحرير الجولان.

لقد كان المسؤولون السياسيون والعسكريون السوريون، وعلى رأسهم الفريق حافظ الأسد، يظنون أنه بقدر ما لديهم من دبابات وطائرات ومدفعية وصواريخ وغيره، بقدر ما يكونون قادرين على تحرير الأرض وتحقيق النصر. وكأن هذه الأسلحة تفعل فعلاً تحريرياً ذاتياً، ولا تحتاج إلى أداة عاقلة مدربة ذات كفاءة، وهذه الصفات لا بد أن تتوج بعامل أساس، وهو المواطنة الحرة، التي تجعل كل فرد من هذه الأداة مقتنعاً أنه يدافع عن وطنه الذي يوفر له الأمن والحرية والعيش الكريم، وهذا لم يكن متوفراً في حده الأدنى.

ألا بحق السماء والأنبياء وكل ما مر على هذه الأرض من الصالحين، كيف يمكن لهذا الجيش الذي يقف على رأسه وزير للدفاع، والذي ليس بين اهتماماته المتعددة والمتنوعة في كل مناحي الحياة من السياسة والاقتصاد والشعر والفن ودور النشر، (ومزارع الفرّي) حتى (وكالة المرسيدس)، ليس بين هذه الاهتمامات حيز يجعله قادراً على التماس ميدان مسؤولياته الأساسية.

ووزير الدفاع هذا، الذي تُدفع كل مصاريف منزله من إصلاحات وديكورات وماء وكهرباء وحتى (الورق الصحي ـ الكلينكس) الذي يوضع في دورة المياه، تدفع من ميزانية وزارة الدفاع، بالرغم من كل ما جمعه من مال.

والأمر الأكثر استغراباً ومرارة، هو حالة قائد سلاح الجو (ناجي جميل)، الذي لم يكن في حياته طياراً، إنما كان ضابطاً إدارياً في سلاح الطيران، دُرب لفترة قصيرة على طائرة نقل، وسمي بمرسوم بعد ذلك كضابط طيار، وتسلم بعد مسلسل الأحداث في سورية منصبه قائداً لسلاح الطيران ونائباً لوزير الدفاع. ولم تكن قيادة سلاح الجو في هذه المرحلة هي اهتمامه الأول، فلقد أصبحت مهمته الأساسية بعد الحركة التصحيحية، مهمة أمنية، فلقد كان مسؤولاً عن مكتب الأمن القومي، ورئيساً لهيئة تحقيق دائمة ـ كان بسببها دائم التواجد في سجن المزة العسكري. هذان نموذجان في قمة الهيكل التنظيمي للقوات المسلحة أذكرهما لمعرفتي الذاتية بهذا الأمر، فكيف

يمكن أن يكون عليه مضمون هذا الهيكل الذي يقف على رأسه مثل هذه النماذج؟

هذه واحدة. أما الثانية فالعالم كله يعرف وهم يعرفون، أن حليفهم أنور السادات كان ينسق مع أميركا، فظنوا أن هذا يخدم مصالحهم وأهدافهم، فهم أيضاً لم يكونوا بعيدين عن هذه العلاقة، إلّا أنهم لم يدركوا الفروق بين ما تستهدفه أميركا من مصر، وما تستهدفه أميركا من سورية، وهم لم يهتموا بكل ذلك، فالجولان منطقة صغيرة المساحة، والمنطقة المستهدفة من قبل هذا الحشد، أقل من مساحة الجولان، فحشد ثمانمائة دبابة وفرق آلية وفرق مشاة ومدفعية وصواريخ بالقدر الأكثر من المطلوب مع الطيران، سيقود وحده حتماً للنصر وهم لقناعتهم هذه، لم يهتموا لزيارة وزير الدفاع «الإسرائيلي» (موشى دايان) إلى المرتفعات السورية قبيل الحرب التي عزز خلالها صنفي: الدرع وضد الدرع، بينما لم يقم بزيارة مماثلة لجبهة سيناء (قناة السويس)، ولم يجر أي تغيير على الوضع في هذه الجبهة.

هل لأن «الإسرائيليين» (ساهين لاهين)؟ لو كانوا كذلك، لما عززوا جبهة الجولان، ويستحيل على «الإسرائيليين» أن يكونوا بهذه الغفلة، هم من هم في أميركا، وفي الواقع العربي المفتوح لهم، بل لأن العملية متفق عليها بين أميركا والسادات، في ما يتعلق بالتسوية بين مصر و«إسرائيل» وما قعقعة السلاح إلّا من أجل إخراجها إلى الحياة.

وقد ظهر أن هناك عملية غدر، قام بها السادات ضد أشقائه وحلفائه السوريين، وهذا أمر طبيعي، فالغدر دوماً من شيم هؤلاء القادة العرب، وذلك منذ ظهور القضية الفلسطينية، وحتى أم المعارك الخالدة. إلّا أن القيادة السورية كانت تعتقد دوماً أنها هي الأذكى! ولهذا كان رعبها حقيقياً حينما ظهر لها في نهاية اليوم الثاني للحرب، أن جيشها قد خارت قواه، وأن معظم ما زجوا به في المعركة قد دمر، هذا الرعب دفعها إلى ما تكرهه أشد الكره، وهو النداء بأعلى صوتها (العراقيين يا هلي) النجدة، النجدة. وبسرعة انهيار الوضع العسكري على جبهة الجولان، وعلى قدر الهلع الذي أصاب القادة السوريين، جاءت فزعة العراق وهي فعلاً (فزعة عرب) (والعرب هنا العشائر الرحل) عندنا حينما تغزوهم عشائر أخرى وتسبى نساؤهم وحلالهم.. يأتي الصايح مجهداً فرسه، صائحاً بأعلى صوته منادياً أفخاذ العشيرة: وين راحوا

النشامى، فيسرعون للنجدة ـ كلٌ وما يملكه دون تنظيم ـ وهكذا كانت فزعة العراق. لماذا؟

إن الأمر المؤكد أن العراق كان لديه معرفة أن حرباً ستقع بين مصر وسورية من جهة وبين «إسرائيل» من جهة اخرى، قد لا يكون توقيتها معروفاً. فعدا عن إمكانات العراق الاستخبارية هناك (طبل وزمر) في مقر السادات، وهناك (هرج ومرج) مع أطراف عديدة على رأسهم الولايات المتحدة، والوفود العسكرية بين القاهرة ودمشق دائمة التنقل، وعدا عن كل ذلك، فقد زود العراق مصر بناءً على طلبها، بسرب من طائرات (هوكر هنتر) مع طياريها، القادرة على القيام بطلعات عسكرية تمتاز بها، الأمر الذي يعطي دلالات أكيدة على توجه مصر الحربي، وتوجه مصر هذا: يعني توجه سورية أيضاً. ويدلك على نوايا السوء لدى القيادة السورية، أنها لم تفعل ما فعلته مصر التي طلبت عوناً مجدداً من العراق. لماذا؟ لأنهم لا يريدون أن يمنحوا العراق شرف المشاركة في النصر الذي سيحققونه، ويوظفوه بالتالي ضد العراق، ولو كان هناك لواء مدرع عراقي واحد لما انهارت الجبهة السورية خلال ٤٨ ساعة على بدء القتال، وأقول، بتقديري الذاتي، أن القيادة السياسية في العراق كان لديها تقدير وموقف صحيح لأسباب الحرب، ومن هنا كان لديهم توجس وتحسب من نتائجها.

فإذا ما حقق السوريون نتائج إيجابية (كأن يستعيدوا الجولان بالحرب) مثلاً، دون عون منهم من أي نوع، بل ومن موقع عدائي، فإن ذلك سينعكس عليهم سلباً، ولا سيما مع نظام قادر على تحويل الهزائم إلى انتصارات، مدعم بالإعلام العالمي وصانعيه شرقاً وغرباً، ومن هنا جاءت سرعة العراق في تلبية طلب النجدة لأن هماً كبيراً انزاح عن صدر القيادة في العراق، طبعاً هناك عوامل أساسية سأبينها ضمن السياق.

وأنا هنا أسأل: لماذا لم يتصرف العراق تجاه طلب سورية النجدةَ في أصعب حالة بالنسبة لقيادتها، تصرفاً استراتيجياً يقود بالتالي من خلال الفعل المشروع، إلى علاقة دائمة متفاعلة نامية بين العراق وسورية؟ بل تصرف بديلاً عن ذلك تصرفاً تكتيكياً، زالت آثاره فور قبول سورية لقرار وقف إطلاق النار؟

إن نتائج نجدة العراق بالطريقة التي تمت بها، وظفتها القيادة السورية لمصلحتها،

واستطاعت أن تطمس دور جيش العراق الحاسم في إيقاف زحف جيش الدفاع «الإسرائيلي» باتجاه الطريق الدولي دمشق ـ درعا ـ عمان. بل ولعبت بهذه الورقة الهامة، وهي (لقاء سورية ـ العراق) التي طالما استخدمتها كورقة ابتزاز غالية الثمن، تطرحها في ظروفها الصعبة، إقليمياً ودولياً، (سعودياً وكويتياً و«إسرائيلياً»)، وبها لعب كيسنجر مع «الإسرائيليين»، وقد عرف منهم كم كان تدخل جيش العراق حاسماً في منع وصولهم إلى أهدافهم، فقد قبلت (غولدا مئير) رئيسة وزراء «إسرائيل» حينها قراري مجلس الأمن (٢٤٢- ٣٣٨) بوقف إطلاق النار، اللذين رفضت قبولهما قبل وصول الجيش العراقي إلى الجبهة، وبرقيتها إلى وزير خارجيتها في هيئة الأمم تدعوه فيها إلى قبول وقف إطلاق النار، قائلة: إن تدخل العراقيين أوجب ذلك أو (بهذا المعنى) تقريباً. والخوف كان أكبر لدى «الإسرائيليين»، وكيسنجر، من استمرار القتال على الجبهة السورية، لأن ذلك يستوجب وجود العراق بثقل أكبر على أرض سورية، الأمر الذي ستكون نتائجه حاسمة بالنسبة لهضبة الجولان وأيضاً بالنسبة للعلاقة السورية ـ العراقية المستقبلية.

ولقد كان بإمكان العراق أن يجني نتائج هامة جداً على صعيد علاقاته المستقبلية بسورية لو أنه تصرف بهدوء وبرؤيا استراتيجية، وهذا ما كان سيكلفه كثيراً، لا على صعيد السمعة الفورية ولا على صعيد الفعل المستقبلي، فكل العرب والعجم شعوباً وحكومات، يعرفون أن العلاقات بين سورية والعراق دوماً غير سوية، بل عدائية. ويفرض هذا العداء النظام في سورية، وأكثر الحكام العرب ودول الإقليم فرحون بذلك، لأنه جاء نتيجة مساعيهم الخبيثة، ومن هنا أقول، لو أن العراق تعامل مع هذا الحدث بتمعن عميق، كان سيصل حينها، أن عليه أن يحقق من خلال هذه النجدة واقعين ثابتين وحقيقتين ظاهرتين، (خصوصاً أن العراق له تجارب مريرة نتيجة لتدخله الدائم في حروب المحيطين «بإسرائيل» مع «إسرائيل») فهو يدعى للقتال أو يتبرع بالقتال، وهو ينسحب أو يطرد حينما تبدأ مرحلة المساومات.

وقد هيأت الظروف الفرصة لتحقيق هاتين الغايتين.

أولاً: من خلال طلب القيادة السورية النجدة.

وثانياً: وهو الأهم الذي لا يتكرر عادة في مدى منظور، هو موافقة الاتحاد السوفياتي في حينه على تدخل العراق العسكري في الحرب لإسناد سورية. والعراق ليس كمصر تفصله عن الاتحاد السوفياتي دول وبحار. وقد ساهم في إنجاح هذا العامل موافقة شاه إيران على طلب العراق تهدئة الأوضاع المضطربة في حينه على الحدود بين العراق وإيران. ولو تقدم جيش العراق بالأسلوب المنهجي العسكري السليم الذي يتقنه بالتأكيد، واصطدم مع العدو من موقع الاستعداد الكامل، وهذا زمنياً يؤجل دخوله المعركة لفترة لا تتجاوز ثمانياً وأربعين ساعة، ولا أحد يستطيع توجيه اللوم إليه بالمطلق لأخذه هذا الزمن المقبول، بل الأكثر من مقبول ضمن الحالة السائدة بينه وبين إيران في حينه، وأيضاً حالة العداء التي كانت قائمة بينه وبين النظام في سورية، هذا الحشد العسكري السليم ثم الاصطدام مع جيش العدو، كانا يمكّنان العراق من استخدام كل قدراته العسكرية ولو لفترة محددة، حتى تتغير المواقف وتتغير نتائج الصراع. وذلك يكفي العراق لتحقيق هاتين الغايتين وهما:

أولاً: إيصال القيادة السورية إلى الهزيمة الكاملة، (وقد كانت تستعد للهروب من دمشق).

وثانياً: سيكون فعل جيش العراق بيناً وبارزاً وظاهراً يعترف به القاصي والداني، وسيحفر في أرض سورية عميقاً، بواقع لا يستطيع أن يجتثه أحد. إذاً.. لماذا لم يفعل العراق ذلك؟.

يقال: (ما أسهل الطعن على الواقف!) وأنا طبعاً واقف، ولا أعرف ظروف القيادة السياسية في العراق وكل ما يحيط بالعراق في حينه، وأعي أيضاً المخاطر الجدية التي ستنجم عن أي تصرف غير محسوب، ولكنني أيضاً عايشت مرحلة نصف قرن من الأحداث السياسية التي كانت دوماً تدفعنا إلى الخلف وأعرف قادتها. ومن هنا فإن تقديري الذاتي أن العراق (القيادة السياسية في العراق)، سلكت هذا الأسلوب لنجدة سورية، مدفوعة بالعوامل التالية:

١ ـ أن طلب سورية النجدة من العراق، قد أفرحه وأزال عن صدره ثقلاً كبيراً، كأن تنجح سورية باستعادة الجولان دون مساعدته والفرحان يدفعه هذا الشعور إلى التصرف والاندفاع.

٢ ـ هناك في القيادة السياسية في العراق، الكثير من الأعضاء القياديين الذين ظنوا أن الفرصة قد سنحت لتحقيق العلاقة التي طمح إليها العراق مع سورية.

٣ ـ والأمر الآخر الهام، هو الموقف الذي كان يقفه الأمين العام للحزب الأستاذ ميشيل عفلق، والذي كان حتى حينه يتخذ من بيروت مقراً لإقامته، وهو أمر غير طبيعي، متخذاً موقفاً يكتنفه الغموض من «الحركة التصحيحية»، ومن النظام في سورية، محاولاً خلق واقع في قيادة قطر العراق وفي القيادة القومية للحزب يخدم رؤيته السياسية. موقف الأمين العام هذا، كان له تأثير على الأسلوب الذي اتبعه العراق في نجدة سورية، لئلا تتهم بالتباطؤ من قبل القائد المؤسس. لقد قلت إن الأستاذ ميشيل عفلق كان يقيم في بيروت حتى حينه، لأنه حينما عادت القوات العراقية التي ساهمت في القتال على جبهة الجولان، استعرضها الأستاذ شبلي العيسمي وفي معيته الرئيس البكر. الأمر الذي أغاظ الرفيق الدكتور يوسف زعين، لأنه اعتبرها (كبيرة)، أن يستعرض جيش العراق شبلي العيسمي وفي معيته الرئيس البكر.

المرحلة الثانية من جهاد القيادة في سورية ضد العراق

بدأت هذه المرحلة بعد قبول سورية لقرار وقف إطلاق النار الذي أصدره مجلس الأمن وقرار الحكومة العراقية بسحب قواتها من أراضي سورية، وقد أرادت الحكومة السورية إبقاء هذه القوات على أراضيها، إلّا أن العراق رفض ذلك، فلم يكن في نية الحكومة العراقية إبقاء جيشها على أرض حكومة معادية، وخارج سيطرتها الأمنية.

إنني لا أستطيع ذكر الأحداث بتواريخها ولا الاحتكاكات الصغيرة ولكنني أذكر ما أستطيع ذكره من الأفعال المؤثرة خلال هذه المرحلة. لقد بدأت مرحلة العداء هذه بانسحاب الجيش العراقي من أراضي سورية في نهاية عام ١٩٧٣ وحتى مبادرة الرئيس الأسد الوحدوية باتجاه العراق. بين هذين الحدثين وقعت أحداث امتدت زمنياً لعدد من السنين، أثبتت خلالها القيادة في سورية، دوام خطها الاستراتيجي وثباته المعادي للعراق، بالأفعال البارزة التالية:

أ ـ إنكار دور جيش العراق الفاعل على جبهة الجولان، الأمر الذي لا يساويه في تاريخ العرب إلّا (جزاء سنمار).

ب ـ قطع مياه نهر الفرات عن العراق قطعاً كاملاً من خلال تحويل مجرى النهر إلى بحيرة الأسد في سد الفرات. الأمر الذي أهلك الزرع والضرع على حوض هذا النهر في العراق. هذا الحوض الذي كان يعيش على أرضه ثلاثة ملايين مواطن عراقي في ذلك الحين. وقد جرت وساطات عديدة إلّا أن جميع هذه الوساطات كان مآلها الفشل. وحتى تدرك مدى الشعور باللذة والتشفي والأذى، الذي كانت تحسه السلطات السورية، عليك أن تقرأ الصحف السورية التي كانت تكتب وتقدم دراسات حول هذا الموضوع، وكنت أقرأها في حينه في سجن المزة في دمشق، إلى أن رأت القيادة السياسية في العراق، أن هذا الأذى المتعمد قد طال، وألحق بمواطنيها نكبات جدية، لا تستطيع تبرير قبولها والسكوت عليها أمام شعبها. فقام الرئيس البكر باستدعاء السفير السوفياتي، واستقبله في وزارة الدفاع (الأمر الذي له دلالة)، لأن السوفيات هم الذين بنوا سد الفرات، ومن المفترض بهم أن يحافظوا على حقوق العراق في مياه النهر ضمن اتفاقية البناء، حسب القوانين الدولية ذات العلاقة بأمر مثل هذا الأمر. وواضح أن القيادة في العراق كانت جادة، في مطالبتها بإيجاد حل لهذه المعضلة ولو بالقوة، الأمر الذي قاد بعد ذلك إلى توقيع اتفاقية بوساطة الشيخ أحمد زكي اليماني وزير النفط والمعادن السعودي آنذاك. وما إن زال هذا البغي، حتى ظهر في موقع آخر بواقع أوضح بغياً وأشد عداوة.

جبهة الصمود والتصدي

إن الذين خلقوا السادات، خلقوا أيضاً الدول والمنظمات المعادية لنهجه. ومن هم هؤلاء المناضلون الشرفاء، الذين يكوّنون جبهة الصمود والتصدي؟ هم قوى التقدم والاشتراكية في الوطن العربي المعادون للإمبريالية، وهم سورية، اليمن الديموقراطي، الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية العظمى (التي يدلك أسمها على العقل الذي اخترع هذا الاسم) ثم ـ لسوء الحظ ـ الجزائر. أما المنظمات فهي: فصائل منظمة التحرير الفلسطينية.

تداعت هذه الدول والتنظيمات إلى اجتماع عقد في طرابلس الغرب، لتقرير كيفية التصدي لمشروع السادات الاستسلامي التصفوي، أي بعد زيارة العار للقدس المحتلة، التي قام بها أنور السادات عام ١٩٧٧؟؟ ودعوا العراق للمشاركة في مؤتمر رؤساء هذا التشكيل، وقد قبل العراق الدعوة وأرسل وفداً مخولاً برئاسة الأستاذ طه ياسين رمضان، من أبرز وجوه القيادة السياسية في العراق. والعراق كان يملك معرفة دقيقة لطبيعة هذا التكوين، والقائمين عليه، فجل هذه الدول أظهرت له العداء، بل ومارسته ضده، وللعراق في حينه، استراتيجية مختلفة أملتها ظروف المرحلة، وطبيعة القوى الفاعلة فيها، أساسها جمع العرب وعدم خلق محاور عدائية في صفوفهم لمواجهة مخطط السادات وعزله. ويحق للقارئ أن يسأل: طالما العراق يعرف طبيعة هذا التكوين، فلماذا يستجيب لمثل هذه الدعوة، ويتعامل معها؟ والجواب، أن الصراع (البارد) يعتمد على المناورات السياسية وتضليل الرأي العام العربي والأهم الوطني فيه، وفي تلك المرحلة كان هناك ظاهرياً خندقان، خندق السادات وخندق المقاومة الفلسطينية ومن يناهضون خط السادات. وحقيقة الأمر أن الخندقين وجهان لعملة واحدة وأثبت الزمان هذه الحقيقة. أما الخندق المناهض لكل هذا الواقع فكان خندق العراق، الذي لم يكن يقف معه فيه أحد في تلك المرحلة.

مؤتمر طرابلس لجبهة الصمود والتصدي

وهكذا، فما إن انعقد الاجتماع الأول، وأدلى قادة النخبة بآرائهم عن أهداف هذه الجبهة حتى تبين أن هذا التجمع مظهري، ويستهدف الإعلان بصوت عال، أن هناك تجمعاً، يدين نهج السادات وتوجهه الاستسلامي، وأنه لا جدية ترتب المسؤولية على أي من أطراف هذا التجمع مادياً ومعنوياً. وحين طرح العراق رأيه في كلمة الأستاذ طه ياسين رمضان ممثل العراق، طرح رؤية متكاملة لمعنى هذا العمل ومضمونه، الذي يرتب خلقه ووضع الحياة فيه، وجعله قادراً على مواجهة المهمة الصعبة التي يتصدى لها، وهو مشروع (الاستسلام والتصفية الذي قاده السادات)، يتطلب أولاً تحديد الهدف من هذا التجمع والالتزام وإيجاد واقع يبنى عليه هذا الهيكل المحدد المسؤوليات لكل من أطرافه، كل قدر استطاعته. والأهم الاستدلال على العوامل المهمة ذات التأثير في الصراع وتنميتها، وتقوية أسسها لصالح ردع مخطط السادات وبالتالي هزيمة مخطط القوى التي تقف خلف هذا المخطط. ومن هنا يتبين أن

الفجوة بين ما قاله العراق، وما قاله الآخرون لا يمكن جسرها. جرت حينها محاولات استفزاز للوفد العراقي من مثل قول «من لم يكن في جبهة الصمود والتصدي فهو في خندق السادات»، وقد استمعنا في سجن المزة إلى الأستاذ طه ياسين رمضان في إذاعة بغداد في أكثر من حلقة يروي تفاصيل ما جرى في هذه القمة وكانت المفاجأة. بالنسبة لنا الذين استمعنا إلى ما قاله الأستاذ طه في هذا الملتقى وإلى قدرته المنطقية والتحليلية للأمور السياسية المعقدة. لماذا المفاجأة؟ لأن رفاقنا من القطر العراقي، كانوا يعطوننا صوراً غير صحيحة، عن القيادة السياسية في العراق، وهذا ممكن حدوثه. فعدا عن العداوة السياسية غير المبررة، فالعمل والفعل هو الذي يبرز قدرات القادة، ولهذا فشل العراق في أن ينال شرف الانتماء إلى جبهة الصمود فكسب عداءها. من ليس في خندق جبهة الصمود فهو في جبهة السادات، وبيّن الزمن اللاحق من كانوا في خندق السادات، ولو لم يكونوا كذلك لكانوا اهتدوا إلى الحل الأوضح من بدر الصيف، وهو دعم قاعدة متلاحمة بشرياً، واقتصادياً وسياسياً بين سورية والعراق، ودعمها بالجهد المادي والسياسي من ليبيا والجزائر، ووضع استراتيجية طويلة النَفس لفصائل منظمة التحرير الفلسطينية، تتفق والنهج المتبنى لإفشال مخطط التسوية والتصفية. عند ذاك يواجه مخطط السادات ومن يقف خلفه بواقع يصعب إحباطه. إلّا أن هدف الجبهة الحقيقي كان المناورة على هذه الحقيقة لأن النظام في سورية لا يستهدف مخطط التصفية، بل يستهدف العراق قبل ذلك، وما عليك إلّا أن تستمع إلى إذاعة لندن العربية هذه الإذاعة التي تجعل من الكلب ذئباً، ومن الجبان أسداً ومن عملاء الغرب من الدول والتنظيمات والشخصيات، راديكاليين، يساريين، حلفاء الاتحاد السوفياتي. والذي كان يفعله الاتحاد السوفياتي هو ترحيبه الحار بهذه الفرية، والتعامل معها على أنها حقيقة. لماذا؟ من أجل أن يبيع أسلحة لصاحب (الكتاب الأخضر) و(من تحزب خان). لقد كانت قيادة الاتحاد السوفياتي بعد (خروتشوف) قيادة (كمسيون سياسي). تبيع وتشتري في سوق السياسة الدولية مصالح من يصادقونها، ومهمة إذاعة لندن تسويق هذا النهج، هذه الإذاعة العتيقة صوت الاستعمار العتيق والخبير، التي تستطيع بيسر تسويق الباطل على حساب الحق والافتراء على حساب الصدق، إن هذه الإذاعة التي تجعلك تصفن مذهولاً وأنت تستمع إلى من ينبحون فيها بالعربية، كيف تجعل من «الإسرائيليين» ضحية تطرف العرب الفلسطينيين، وتجعل من العراقيين وخاصة قيادتهم بغاة طغاة، ومن

شعب العراق طوائف وتسوغ لتسهيل مهمة إيران التي تكبر العراق بأربعة أضعاف مساحةً وسكاناً وجيشاً وحتى اقتصاداً في تلك المرحلة، وهي دولة طامعة دوماً، أن تجعل من العراق ميداناً لنفوذها بحجة ماذا؟ بحجة تصدير الإسلام، ومن هو هذا الذي يصدر الإسلام، هو الخميني الماسوني الفارسي الشعوبي، إلى من!! إلى العرب، هؤلاء هم الإنكليز الذين ساهموا في صناعة ثورة الخميني كما ساهموا من قبلها في تحويل حركة إصلاح ديني في نجد إلى حركة سياسية، استولى بها عبد العزيز بن سعود على نجد والحجاز ومن ثم على عسير. ثم استمع إلى هذه الإذاعة وهي تتحدث عن مأساة لبنان، وتضع اللوم كاملاً على الفلسطينيين واللبنانيين. الفلسطينيون يجعلون من لبنان، قاعدة انطلاق للتخريب في «إسرائيل» واللبنانيون لأنهم غير قادرين على منعهم من ذلك، فصفوفهم منقسمة إلى طوائف وشيع: موارنة، دروز، سنة، شيعة. فلا علاقة للمستعمرين الإنكليز والفرنسيين ومن بعد حلف الأطلسي والأميركان، لا علاقة لهؤلاء بما يجري في لبنان وفي فلسطين والمنطقة ولا لأدواتهم في المنطقة من عرب نفطيين وغير نفطيين ولا لقاعدة الاستعمار المخلوقة في فلسطين. هذه هي إذاعة التزوير العليمة بوضع السم في الدسم.

الصفحة الأخيرة من المؤامرات الداخلية على العراق

لقد رمى النظام في سورية بآخر الأوراق، أوراق كل القوى المضادة لتقدم العراق، وكانت هذه المحاولة هي آخر محاولات التآمر داخل العراق، استهدفت جوهر النظام من خلال أداته (أي الحزب)، مثلها في ذلك مثل حركة ٢٣ شباط، مع اختلاف الواقع والظرف في الحالتين. انتهى عداء سورية مظهرياً، بانعقاد مؤتمر قمة بغداد الذي دعا إليه العراق من أجل مواجهة نتائج زيارة السادات إلى القدس المحتلة، رأس هذا المؤتمر الرئيس البكر بصفته رئيس الدولة الداعية والمضيفة، ورأس وفد العراق نائب رئيس مجلس قيادة الثورة الأستاذ صدام حسين، الذي أثبت باعتراف المراقبين الأكثر بعداً والقريبين قدرته المنطقية والسياسية على سد الثغرات التي كان يحاول فتحها من هم في خط السادات، في التوجه الذي كان يستهدف عزل السادات وإيقاف مخاطر نهجه، وخلق إجماع عربي ضد سياسته المدمرة، وكلنا يعرف من هم وراء السادات ومن هم في صفه.

نجح المؤتمر وأرسل وفداً يخبره بقرارات المؤتمر وبالتزام الأمة العربية بدعم مصر مادياً ومعنوياً حيال كل النتائج التي تترتب على تخلي الرئيس السادات عن نهجه السياسي. وقد قرر المؤتمر كذلك عوناً مادياً للأردن وسورية ومنظمة التحرير الفلسطينية، وهكذا نجح المؤتمر وما كان له إلّا أن ينجح، فلم يجد أي من المؤتمرين الذين أيدوا السادات ـ وهم كل دول الخليج وعلى رأسهم السعودية والأكثرية الباقية من الدول العربية ـ لم يجدوا مخرجاً إلّا الموافقة إلى أن يفرجها الله وفرج الله قريب، فما إن يعود كل إلى بلاده، إلّا ويصبح الحال مختلفاً فيصبح التنصل حينها سهلاً إن مباشرة أو مداورة أو مماطلة. وهكذا أنهي عداء نظام سورية للعراق مظهرياً وبدأ النظام ومن هم وراءه يحشد للجولة المقبلة من الصراع الذي ظاهره التقارب وباطنه التآمر.

سورية والتفرد بشرف المواجهة

إن الحل المنفرد هو جوهر القرار (٢٤٢)، وهي استراتيجية ثابتة للغرب والصهيونية، والذين يعلنون من القادة العرب عن وحدة الموقف العربي، هم منافقون ومضللون، ولا يخدعون الإنسان العربي، فالعرب قد يقاتلون مجتمعين ولكن عليهم أن يفاوضوا ويوقعوا الاتفاقيات منفردين. هكذا كانت حرب عام ١٩٤٨، وهكذا جرت اتفاقيات الهدنة التي نتجت عنها. لماذا يحاربون مجتمعين في تلك المرحلة؟ لأن فلسطين أرض عربية، لا يستطيع أي حاكم عربي في حينه إلّا أن يدخل القتال من أجلها، بغض النظر عن قوة هذا الحاكم أو ضعفه، وبغض النظر عن موقفه السياسي، طالما هو يحكم شعباً عربياً مؤمناً بهذه الحقيقة آنذاك. ومن هنا لا بد لكل حاكم عربي أن يقدم نوعاً من الدعم إن كان بعيداً، أو القتال إن كان يحيط بفلسطين. هذه الحقيقة كان يفهمها سادة الحكام العرب في حينه، ومن هنا يقرر الحكام العرب القتال مجتمعين، ويقرر سادتهم نتائج هذه الجولة من القتال، ثم إن استراتيجية الصهيونية داخلياً وخارجياً دعايةً وإعلاماً وسيكولوجية مبنية على عداء العرب الجماعي «لإسرائيل» حتى يبرر موقف الغرب العدائي ضد العرب والداعم والحامي لهذه الدويلة، واحة الديموقراطية في صحراء البداوة هذه! ومن هنا فالعرب يقاتلون مجتمعين، مظهراً ومخبراً، كل منهم يعرف حدوده، ومن هنا فكل منهم يحاول أن يبطل فعل الآخر بالتآمر ضد مصر منذ حرب عام ١٩٤٨، بل وفي كل حروبها ما عدا حرب السادات

لأن مصر في حينه وفي كل ما مضى كانت تمثل الثقل الذي لا بد لأعداء العرب من تخفيفه، وقد أدرك الرئيس عبد الناصر هذه الحقيقة بعد التدخل في اليمن، وهزيمة عام ١٩٦٧ (وطبعاً كان إدراكاً متأخراً). لقد قال حينما التقينا به قبل أيلول عام ١٩٧٠ في استراحة المعمورة في الإسكندرية «إن مصر ستعتمد على نفسها باستعادة أرضها ولو بالقتال». وبعد (كامب ديفيد) حين ارتفع في مصر شعار أن حرب تشرين هي آخر الحروب مع «إسرائيل»، تحول الثقل الاستراتيجي لأعداء العرب نحو العراق، ولا يظن أحداً أن النظام في سورية كان قلقاً أو ساخطاً على قرار رفيقه في السلاح والهزيمة، وإدارة ظهره له مسرعاً إلى (كامب ديفيد)، العكس هو الصحيح، فمشروع النظام السياسي في حينه، كان يقتضي خروج مصر نهائياً من ساحة العمل العربي المشترك، ولهذا حتى لو نجح النظام في سورية في استعادة بعض الأرض أو كل الأرض في الجولان، فإنه لن يصل إلى صلح مع «إسرائيل» إلّا بعد أن يحقق مشروعه السياسي في العراق، وهو ليس مشروعه بل هو مشروع دولي في حينه معه (الغرب والشرق) مع الفوارق في المصالح، والنظام في سورية كان رأس حربة وعنواناً لهذا المشروع في المرحلة التي أنا بصددها أي منذ «الحركة التصحيحية»، وحتى المؤامرة على صدام حسين، (أما حلفه مع إيران ومن بعد دخوله مع تحالف حفر الباطن فقد كان موقفه ذليلاً) إلّا أنه لسوء حظه، والأصح لسوء نيته، انهار جيشه بعد أقل من ٤٨ ساعة على بدء القتال، وكان لا بد أن ينهار، فتركيب هذا الجيش وقدرته القتالية واستعداد عناصره المعدوم للتضحية، كل ذلك كان لا بد أن يقود إلى ذلك الانهيار، حينها أصابه الذعر الذي دفعه إلى طلب النجدة من العراق، وكانت المعضلة التي واجهته بعد دخول جيش العراق، وقتاله البطولي إلى جانب الجيش السوري، معضلة لم يكن باستطاعته حلها، والاستمرار في سعيه لتحقيق مشروعه ضد العراق، فجاء لنجدته هنري كيسنجر وزير خارجية أميركا، وما كان بمقدور أحد أن يحل معضلة الرئيس السوري سواه، فحشد له التأييد (إقليمياً ودولياً وخاصة سوفياتياً) وأخلى له الساحة من جميع المقاتلين، يصول ويجول فيها إعلامياً، وكأنه لم يخسر أرضاً في حرب عام ١٩٧٣ ضعف ما خسره عام ١٩٦٧، حاملاً صليب العرب والمدافع الوحيد عن حقوقهم، أمام (الهجوم الإمبريالي الصهيوني).

أما جماهير هذا الموقف (فقد تم حشدها أطلسياً وسوفياتياً وإقليمياً)، وكلنا يعرف كم

كانت قوة هذا الحشد، وحينما تخرج مصر من المعركة فكل من شهر سيفه من دول الطوق فهو فارس، ولقد استغل النظام في سورية هذا الأمر أفضل استغلال، وهو المناور البارع، المستند إلى أداة لا تزال متماسكة رغم الهزائم التي لحقت به، فهو الآن المواجه الأول والوحيد «لإسرائيل» وهذا حقيقة بغض النظر عن مضمون هذه المواجهة، فبعد خروج مصر من المواجهة لم يكن هناك في النظرة التقليدية للأمر من هو أكبر من سورية من دول الطوق، فهي الأكبر مساحة، والأكثر سكاناً والأوسع إمكانات، والأمر الثاني الهام أنها ترفع شعار الوحدة والحرية والاشتراكية على أعلى المواقع في حدودها وعلى مؤسساتها، وهي التي تلقن جنودها وطلابها شعار البعث صباح كل يوم عمل، ومن هو أكثر من البعث وحدوية؟ ومن هو أكثر منه معاداة للاستعمار؟ ومن هو أشد ولاء لفلسطين؟ وكم هم الذين يعرفون الحقيقة؟ وكم منهم من يستطيع قولها؟ وكم هم الذين يسمعونها في خضم هذا الصخب الشديد؟ والأمر الهام الثالث أن سورية الحليف الاستراتيجي لقوى التقدم والتحرر في العالم، وليس هناك أكثر إثباتاً في حينه على هذه الحقيقة المزيفة، من موقف الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي، المعلن قولاً وفعلاً، والداعم سياسياً وعسكرياً للموقف السوري، وهو الذي حشد الأحزاب الشيوعية، وقوى التقدم الملتفة حول هذه الأحزاب في العالم لنصرة سورية ودعم موقفها السياسي أضف إلى ذلك إعلام النظام المتبجح والنباح وإعلام الغرب المؤيد له، وخصوصاً إذاعة لندن والإعلام «الإسرائيلي» الخبيث، الذي يطل علينا بين الحين والآخر أن سورية تتسلح، وأن نوايا سورية عدوانية، وأن الرئيس الأسد يسعى إلى تحقيق مشروع (سورية الكبرى). هذا الواقع المخلوق والمصنوع والمستغل استغلالاً مثمراً، جعل الموقف السوري يملأ سمع وبصر الإنسان العربي المهتم بمصيره وفي ظروف المرحلة التي بدأت بحرب تشرين عام ١٩٧٣ وانتهت بكامب ديفيد، والتي كانت مليئة بالمفاجآت غير المعقولة (مثل زيارة السادات للقدس المحتلة، ١٩٧٧) وصلت أرواح الناس في الوطن العربي إلى الحناجر. وطالما ليس هناك تيار مقاتل، يمارس الفعل مختبر المعرفة مثله، يؤمن به الناس، يصبح حينها، كل سراب حقيقة، وكل سيف مشرع سيف فارس، وكل رأي غثّ، رأياً سميناً. وطبيعي أن تتجة أنظار الناس بعد خروج مصر من ساحة الصراع إلى سورية والعراق، هذين البلدين المتجاورين المتعاديين اللذين يقود السلطة فيهما حزب البعث العربي الاشتراكي، لماذا لا يلتقيان، بل لماذا لا يتوحدان وهما اللذان إذا

التقت إمكاناتهما بفعل صادق وتفاعل موضوعي، قادران على الصمود في وجه هذا الهجوم الطاغي؟ الباغي؟ هذه كانت نظرة الإنسان العادي إلى الواقع، والبعثيون من هذا الشعب ومن أكثريتهم الساحقة، وعيهم في مستوى وعي السياسي العادي، والفرق أنهم ملتزمون بالنضال من أجل تحقيق طموحات هذا الإنسان، ومن هنا فهم أكثر تعلقاً بهذا الطرح، وأشد حماسة له. في هذا الجو المشحون باليأس، قذف الرئيس الأسد بالكرة إلى مرمى القيادة في العراق، طالباً اللقاء لتدارس الموقف، والخروج بعلاقة تجعل البلدين قادرين على مواجهة المخاطر المحدقة.

وحتى يكون القارئ على بيّنة من تأثير هذه المبادرة في نفوس الناس، لا بد له أن يطلع على ردة الفعل عند نموذج من الأشخاص، لهم تجربة ولديهم خبرة نضالية، والنموذج الذي أنا متأكد من حقيقة شعوره هو كاتب هذه الذكريات، الذي أرسل فور إعلان المبادرة، برقية إلى صاحبها الرئيس حافظ الأسد، ومن سجن المزة العسكري بدمشق، يؤيده في هذا التوجه ويبارك مسعاه. قال في البرقية: إن سورية والعراق اللذين يحيط بهما الأعداء من كل حدب وصوب، يحمي كل منهما صدر الآخر وظهره. ولم أخبر أحداً من رفاقي الذين أعيش وإياهم في السجن عن هذه البرقية، والأمر الغريب أنني لم أجد بينهم من أخذ هذه المبادرة مأخذ الجد، رغم أنهم قادة في حزب البعث العربي الاشتراكي قبل ٢٣ شباط وبعدها، ومع ذلك اعتبرت أن آراءهم ناتجة من الواقع الذي كنا نعيشه في السجن، إلّا أن النقيب الرفيق كامل حسين ـ الذي كنت أثق أنه يعرف الحقيقة ـ التقيته في الساحة العامة وهو في طريقة لعرض نفسه على الطبيب، فهو لم يكن يعيش معنا، وهو صديق لي ويتعامل معي بصدق. قال لي: إنها مناورة سياسية وهي غير جدية. فحزنت لهذا.

حينها، وفي هذا الظرف الصعب تذكرت رأياً قاله الرفيق الدكتور يوسف زعين، رئيس وزراء سورية الأسبق، قال: إن الميزان بين سورية والعراق لا يمكن أن يتوازن إلّا خارج إرادة القوى المضادة لنهوض العرب وتوحدهم، ومطلوب الآن أن يتوازن، ولكن لمصلحة المخطط وإرادة القوى المضادة لوحدة العرب ونهوضهم.

والتساؤل الذي يرد إلى الذهن: من هو المستهدف خداعه أو التأثير فيه بهذه المناورة؟

معروف أن ورقة العراق ـ سورية، ورقة شديدة التأثير، غالية الثمن عربياً وإقليمياً ودولياً، والمتتبع للسياسة السورية المعلن منها والمنشور بعد «الحركة التصحيحية» (وحتى قبلها)، يعرف أنها مع التضامن العربي، أي مع مصر السادات، وخليج السعودية، وهي دولياً بالرغم من المعلن من أنها حليف للاتحاد السوفياتي، فضمن سياسة الوفاق، التي رممت واقع النظام بعد الهزيمة في حرب تشرين (التحريرية ١٩٧٣!!!)، وخلقت له الواقع الذي يصول ويجول فيه، هو في حقيقة الأمر مع السياسة (الإنكليزية ـ الأميركية)، وهو بالتأكيد لا يستطيع خداع الإنكليز أو الأميركان بهذه المناورة.

إذاً من هو المستهدف بالخديعة؟ لا بد أن يكون العراق. والسؤال: كيف يمكن للرئيس الأسد توخي نتائج إيجابية من أي نوع في العراق؟ إن كان قيادة وإن كان شعباً.

إن لدى الشعب العراقي والقيادة، قائمة طويلة من المآخذ، بل والمآسي التي أصابت العراقيين من جراء سياسة العداء التي انتهجتها القيادة السورية تجاه العراق منذ قيام «الحركة التصحيحية» وحتى مبادرة الرئيس الأسد.

منها على سبيل المثال لا الحصر:

(١) تأميم ممتلكات شركة نفط العراق العائدة قانونياً وواقعياً إلى الحكومة العراقية، بعد التسوية بين الحكومة العراقية ومساهمي شركة نفط العراق.

(٢) زيادة رسوم مرور أنبوب نفط العراق بعد التأميم إلى ثلاثة أضعاف ما كانت تتقاضاه سورية من شركة نفط العراق.

(٣) الدعم المطلق والكامل لعناصر التمرد في شمال العراق.

(٤) الإنكار التام لدور جيش العراق الحاسم على الجبهة السورية في حرب تشرين.

(٥) إيقاف تدفق مياه نهر الفرات باتجاه العراق، الأمر الذي أهلك الزرع والضرع على حوض هذا النهر في العراق.

(٦) إتلاف عشرات الآلاف بل مئات الآلاف من أطنان البضائع العراقية، المستوردة

عبر الموانئ السورية واللبنانية.

(٧) غلق الأجواء السورية في وجه الطيران المدني العراقي.

(٨) تدمير السفارة العراقية في بيروت تدميراً كاملاً، وقتل كل نفس كانت بها.

(٩) بناء ساتر ترابي ملغّم على طول الحدود السورية ـ العراقية، وقد طُبع على كل جواز سفر سوري عبارة «صالح للسفر لكل البلدان ما عدا «إسرائيل» والعراق». ويتضح لنا هنا، أنه لم يكن هنالك مصلحة أو منفعة أو مؤسسة للعراق، تطالها قدرة الحكم في سورية بالأذى والتدمير، إلّا وأصابها ذلك. إذاً ما هو العامل أو العوامل التي دفعت بالرئيس الأسد إلى القفز فوق هذا التراث العدائي المؤثر، والذهاب إلى النقيض، (طبعاً علينا أن نتجاوز الكسب الدعائي والإعلامي الذي سيتلقاه الرئيس الأسد بين الجماهير العربية، وخصوصاً من هم في فلسطين ومن يحيط بها ـ لأنه كسب مؤقت لم يكن هدفه الأساس). إذاً لا بد من سبب هام استدعى هذه المناورة الاستراتيجية.

واتضح فيما بعد، أن الهدف هو التأثير في واقع العراق الداخلي لمصلحة صاحب هذه المبادرة، ولما كان شعب العراق بنسبتة الكبرى ضعيف التأثر بهذه المبادرة، أولاً: لما لحقه من أذى من صاحبها، وثانياً: صحيح أن شعب العراق قومي التوجه عروبي النزعة، لكنه أيضاً مثله مثل أي شعب آخر غني بثرواته، يطمح إلى مستوى من العيش عال، إلّا إذا اقتضت قيادته، أن عليه أن يقدم مساعدات طوعية، تجعل العراق أكثر أمناً وأمتن استقلالاً وطنياً.

ومن الصعب التصديق أن الرئيس الأسد كان يطمح من خلال مبادرته تلك إلى التأثير في قطاع هام ومؤثر في ساحة العراق، وهو الجيش، لأن جيش العراق غادر أرض سورية غيرَ مشكور، على فعله المشهود.

إذاً، من هو المستهدف بالتأثير داخل صفوفه من خلال هذه المبادرة الوحدوية؟ هو حزب البعث العربي الاشتراكي، أداة النظام وركيزة حكمه، هذه الأداة التي لم تبخل عليها قيادتها التاريخية بالتجهيل، خلال مسيرته النضالية والسياسية، عبر ممارساتها السياسية المتناقضة تماماً مع أيديولوجية البعث، هذه القيادة التي اتخذت من المناورة

السياسية والانقلابات العسكرية أسلوباً لتحقيق أهداف البعث، الأمر المستحيل حدوثه، وإن حدث مرة، فقد حدث من أجل أن يفشل.

والاستمرار على هذا النهج له دلالة لا يمكن دحضها، وهي أن المطلوب ليس فقط رأس العراق ولكن رأس البعث أولاً، ومن خلاله رأس العراق. وعلينا أن نعود إلى الخلف إلى اللقاء الذي تم بين الدكتور جمال الشاعر والرفيق محمود المعايطة بالأستاذ ميشيل عفلق في بيروت، وتم فيه الاتفاق بين الثلاثة، على تشكيل تنظيم سياسي موحد في الأردن من التنظيم الذي يقوده الدكتور جمال الشاعر، الذي يمثّل البعثيين المستقلين، والتنظيم الذي كان يقوده محمود المعايطة، ومثل «الحركة التصحيحية»، وتنظيم الحزب القومي الذي رأسه الأستاذ الأمين العام للحزب، الأمر الذي يدل أن الأستاذ ميشيل، كان يعتبر «الحركة التصحيحية» جناحاً من أجنحة البعث، (أما ما هي اعتباراته بالنسبة للدكتور جمال الشاعر، الذي لا يخفي نفسه في مذكراته، فعلى الباحثين استنباط تلك الاعتبارات)، وتساءلت حينها ما معنى هذا الخلط؟ والآن قد بان معنى وأسباب وأهداف هذا الخلط. فعلينا أن نتذكر، أن الدكتور منيف الرزاز الأمين العام المساعد للقيادة التي يقودها الأستاذ ميشيل في العراق، هو صديق للرئيس الأسد، إذاً، فالأستاذ ميشيل عفلق والدكتور منيف الرزاز اعتبرا الحركة «التصحيحة» حركة تصحيح لانقلاب ٢٣ شباط، ولا بد هنا من العودة إلى انقلاب ٨ آذار عام ١٩٦٣، الذي قال فيه الأستاذ القائد المؤسس في حينه، إن ثورة آذار في سورية، هي توأم ثورة شباط في العراق.

ومنذ ٨ آذار، قاد الأستاذ ميشيل عفلق الحزب في سورية، وأعاد بناءه وتركيبه حتى المؤتمر القطري الأول الذي انعقد بعده مباشرة المؤتمر القومي الثامن، الذي انتخب قيادة قومية انتخبت الدكتور منيف الرزاز أميناً لها، ومن ثم أميناً عاماً للحزب.

إن تركيبة الحزب هذه، التي بناها الأستاذ ميشيل عفلق في سورية، قادت إلى حركة الثالث والعشرين من شباط، التي ولدت من رحم ٨ آذار. وطبيعي أن تلد حركة الثالث والعشرين من شباط ولادة محسّنة ومصفّاة، فكانت «الحركة التصحيحية».

هذه الولادات المتتالية من أجل ماذا؟ هي من أجل الوصول إلى الأداة التي تنفذ

المخطط، تحت لافتة البعث، بعد تصفية البعث من كل من لا يقبل ذلك؟ فهل يعقل ألّا يدرك قائد، ومفكر ممارس ومجرب، وهو ابن هذه المواقع، كالأستاذ ميشيل عفلق ليعتبر بالتالي «الحركة التصحيحية» المصفاة النهائية لمضمون البعث ومنهجه، يعتبرها تصحيحاً لانحراف ٢٣ شباط.

وعلينا أن نتذكر أنه قبل ٢٣ شباط كان الدكتور منيف الرزاز أميناً عاماً للحزب، وكان القائد المؤسس عضواً في القيادة القومية التي كان أمينها الدكتور منيف، وأثناء مبادرة الرئيس الأسد الوحدوية كانت المعادلة معكوسة، كان الأستاذ ميشيل عفلق أميناً عاماً للحزب وكان الدكتور الرزاز أميناً مساعداً له، بعد أن أعيد الدكتور منيف إلى الحزب رغم (التجربة المرة)، ورغم ما أعلنه أمامي للسيد ياسر عرفات، من أنه لم يعد له علاقة لا بجبهة التحرير العربية ولا بحزب البعث العربي الاشتراكي، وأنه في حركة الثالث والعشرين من شباط لم يقطع إلّا رأس الفريق أمين الحافظ، أما الأستاذ ميشيل والدكتور منيف، فقد أعيد تركيبهما، والذي تبين فيما بعد، أن هدف مبادرة الرئيس الأسد الوحدوية، هو قطع رأس واحد في القيادة العراقية في حينه، ومن بعد قطع رأس العراق، وهو الهدف الاستراتيجي المطلوب، وكلنا يعرف النتائج التي ترتبت على مبادرة الرئيس الأسد الوحدوية، على صعيد الحزب في العراق قبيل وأثناء تسلم الرئيس صدام حسين أمانة سر القطر ورئاسة الجمهورية.

ورب سائل قد يسأل: وما علاقة الأستاذ ميشيل بهذه المؤامرة، وأنا هنا لن أدخل إلى متاهة لا أملك القدرة على الخروج منها. ولكنني أقول إن استمرار الأستاذ ميشيل على رأس الحزب في العراق والتكريم الذي حظي به ويحظى به بعد مماته، لا يعني أن ما قلته من قول غير صحيح، فقد يكون غير دقيق. ثم إن الأستاذ ميشيل إنسان لا يمكن التعامل معه كأي إنسان آخر في حزب البعث العربي الاشتراكي، لكنه هو المسؤول الأول عن الثبات الاستراتيجي الذي كان يجب أن يدوم عليه نضال البعث، وهو النضال من أجل الديموقراطية على كل ساحات الوطن العربي ومقاومة الانقلابات العسكرية مقاومة لا هوادة فيها، إلّا تكتيكاً مرحلياً ضمن واقع تفرضه معطيات دولية يقود بالتالي بالتأكيد إلى الديموقراطية، وهذه الاستراتيجية مسؤول عنها الأستاذ ميشيل عفلق.

أما الأسلوب الثاني والذي يمارَس في الواقع الذي لا توجد به حرية وإن وجدت فهي فرية تخدم مصالح الأنظمة سياسياً واجتماعياً، فهو النضال في صفوف الناس من أجل المطالبة بالحرية وتوضيح معناها ومضمونها ودورها في تصحيح الواقع الاجتماعي والسياسي. وأنت بالتأكيد عندما تناضل بإيمان من أجل ذلك (كحزب بعث عربي اشتراكي)، ستصطدم بقوى التخلف والتجزئة وبالقوى المضادة التي تقف وراءهم، وسيأخذ الصراع مع هذه القوى زمناً مضمونه الفكر والحركة والفعل، إلى أن تصل إلى نقطة التحول أي من احتجاج جماهير إلى فعل جماهيري تقوده أداة توحدت رؤاها السياسية والاجتماعية والمسلكية عبر هذا المسار حول البناء المستقبلي للوطن، الذي هو هدف البعث الاستراتيجي.

أما إبدال هذا النهج بالمناورات السياسية وبالانقلابات العسكرية والقفزات النوعية، فهو الذي قادنا إلى ما نحن فيه الآن من عدم وجود ردود فعل جماهيرية على مساحة الوطن العربي، ردود أفعال على البغي الأميركي والإنكليزي على العراق، والطغيان الصهيوني المدعوم أميركياً على شعب فلسطين. يزول رد الفعل هذا من ذاته، بعد أن يأخذ دفعه الذاتي مداه، لأنه لم تتكون عبر النصف قرن الماضي، طليعة مناضلة مقاتلة تواجه هذا الواقع وتدمره، تدعمها نقاط الارتكاز في العراق وفلسطين.

فمن هو المسؤول عن ذلك في حزب البعث العربي الاشتراكي؟؟

الحرب بين العراق وإيران

حينما بدأ الصراع المباشر بالقتال، وهو بالنسبة للعراق صراع مصير، قال الأميركان والإنكليز وعميلهم أنور السادات أن العراق هو الذي بدأ القتال وهو الذي هاجم إيران واحتل أرضها، والعراق لم يهاجم إيران بل هاجم التحشد الإيراني على حدود العراق الذي كان قد بدأ القصف بالمدفعية وأحياناً بالطيران على طول الحدود الجنوبية والغربية للعراق، وهذا التحشد الذي بدأ بالقصف استعداداً للهجوم هو الذي هاجمه العراق، والعراق في هذا الهجوم لم يحتل أرضاً إيرانية وإنما استعاد أرضاً عراقية احتلها شاه إيران وأعيدت إلى العراق بموجب اتفاقية الجزائر ورفض الخميني إعادتها، بل

ورفض الاعتراف بهذه الاتفاقية وهاجمها، وهي أرض حيوية للدفاع عن عاصمة العراق التي لا تبعد أكثر من ٢٠٠ كلم عن الحدود. وقال الفريق حافظ الأسد الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية العربية السورية، والعقيد معمر القذافي قائد ثورة الفاتح من سبتمبر أمين القومية العربية، أن صدام حسين (عميل للإمبريالية الأميركية) هاجم الثورة الإسلامية ليمنعها بالتالي من التصدي للدولة الصهيونية، أي أنه كان على قيادة العراق أن تنهزم أمام الخميني وتسلمه العراق، من أجل ماذا؟ من أجل أن تتصدى إيران الخميني لدولة «إسرائيل» أي نعطي العراق (ولا أكبر من هذا العطاء) على أمل أن يتصدى الخميني لدولة «إسرائيل»، ومن يقول بذلك؟ الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي في دمشق وأمين القومية العربية في ليبيا! و«إسرائيل» لا تتطلب قدرة ثورة الخميني الجبارة (على حد رأيهم) لوضعها في حجمها الحقيقي (هذا إذا افترضنا أن هذا القول فيه شيء من الصحة، وطبعاً ليست فيه ذرة من الصدق) فـ«إسرائيل» حينما يسقط سورها الأمني المحكم والقائم على الأنظمة العربية المحيطة بها، فالفلسطينيون والأردنيون، أو الفلسطينيون واللبنانيون، قادرون على وضعها في حجمها الذي يقررون، دعني من السوريين والمصريين وغيرهم.

وهكذا فالأميركان والإنكليز يمثلون الغرب والرئيس الأسد والعقيد القذافي يمثلان القومية العربية، واليمن الجنوبي والأحزاب الشيوعية يمثلون اليسار الرسمي والشعبي، ومن الطبيعي أن يكون الاتجاه الإسلامي في الوطن العربي مع الثورة الإسلامية. أينما قامت هذه العينات تعطيك صورة دقيقة عن الواقع إقليمياً ودولياً، شعبياً ورسمياً. خاصة والاتحاد السوفياتي صار يغازل ثورة الخميني ويمالئها، إذاً من هو الذي كان مع العراق في هذا الواقع المخطط والصعب؟ لم يكن مع العراق في حينه إلّا شعبه وقائده وقدرة هذا القائد ورفاقه على خلق الواقع القادر على مواجهة هذا الخطر. نعم لقد أعد صدام حسين العراق مسبقاً لمواجهة إيران حينما كان شاه إيران يقودها، فقد حان الوقت، حسب رؤية صدام حسين وفهمه آنذاك، أن يثبت العراق فيه بالملموس أنه قادر على كسر هذه القدم العريضة التي تضعها إيران على عنقه. ولما صارت ثورة الخميني لاقاها غير هيّاب مؤمناً ومتأكداً من قدرة العراق على مواجهتها، بل وأقول أن صدام حسين كبّر جهل الخمينيين وهيّج غرورهم بثبات قل نظيره وأعصاب لا تهتز. نعم لقد عاونت دول الخليج العربية العراق في حربه مع إيران مادياً ومعنوياً تسليحاً وتمويلاً. وأمير المساعدين كانت المملكة العربية السعودية التي دعمت العراق بسخاء مالاً وسلاحاً لا

يرد. وهكذا نجد أن العرب كانوا منقسمين على ذاتهم عملاء الإنكليز في هذه المرحلة من الصراع (ومعهم «إسرائيل»). كانوا في خندق إيران الخميني بكل إمكاناتهم ما عدا الأمر الذي لا يستطيعونه وهو التدخل العسكري المباشر، وأخص بهذا الرئيس حافظ الأسد. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل كان الإنكليز والأميركان مختلفين استراتيجياً حول نتائج الصراع؟ أقول نعم، ولكن هذا الخلاف ليس خلافاً يقود إلى العداء، إنه خلاف تستطيع أن تسميه (خلافاً عائلياً) حيث صاحب الباع الأطول في الأحداث والنتائج يأخذ النصيب الأكبر عند تقاسم الغنائم والنفوذ. ومن هنا وقف الأميركان على الحياد مظهراً وحاولوا الإيحاء بأن مصلحتهم أن لا ينهزم العراق وأن مهمتهم الأساسية هي إطالة أمد الحرب إلى الواقع الذي يجعل الطرفين يخرجان من الحرب مهزومين. ومن هنا نجد أن كل الأنظمة العربية الخليجية وغير الخليجية التي تعمل بالنصيحة الأميركية قد ساعدت العراق مادياً وسياسياً. هذا مع التبيان أن هناك أنظمة بين هذه الدول تقتضي مصلحتها الأمنية استراتيجياً أن تقف بقوة إلى جانب العراق وأخص هنا المملكة العربية السعودية التي فعلت ذلك.

والسؤال هو: هل ساعدت دول الخليج العربي العراق من أجل أن يحقق نصراً كالنصر الذي حققه؟ وأقول كلا طبعاً لقد كان أشدهم تفاؤلاً مقتنعاً أن العراق قد لا يهزم ولكنه سيعجز عن تحرير أرضه التي احتلتها إيران وبالأخص شبه جزيرة الفاو والنصف الغربي من شط العرب وكذلك الأرض المحتلة على الحدود الشرقية كجزر مجنون في الوسط والشمال، وهذا العجز هو ما كانت تسعى إليه السياسة الأميركية لأن هذه الحالة تضعه في وضع مشابه لحالة دول الطوق المحيطة «بإسرائيل» وتضطره إلى التنازل عن مشروعه السياسي والاجتماعي وتجعله لصيقاً بدول الخليج وبواقع أقل مطاولة من بعض دوله ملتفاً بالعباءة الأميركية. أما دولة الكويت فكانت مقتنعة تماماً أن جارها القادم سيكون الخميني، ولذلك مدت حدودها إلى داخل العراق وبدأت باستخراج النفط من أرض العراق حتى إذا ما وصلت جيوش الخميني إلى هذه الحدود قالت له إن هذه حدودنا، ومعروف من هو الذي سيوقف الخميني عند هذه الحدود، إنهم الأميركان. ومن هنا فأنت حينما لا تتوقع الفاجعة يكون تأثيرها أكبر من الفاجعة نفسها، فحين حرر العراق أرضه غرب شط العرب وشبه جزيرة الفاو وجزر مجنون وكل شبر من أرضه وحتى شط العرب، كانت الفاجعة بالنسبة للإنكليز وحلفائهم

فاجعة حقيقية، فقد تساءلت بصخب شديد على لسان أحد النباحين في إذاعة الـ(B.B.C): من هي الجهة في العراق التي تتخذ قراراً بمستوى هذا القرار؟ والتساؤل بالنسبة لبريطانيا ومستواها وخبرتها مشروع، فلا هي ولا غيرها من الدول الكبرى اعتادت أن تتخذ دولة في مستوى دولة العراق قراراً بتحرير أرضها التي يحتلها العدو بمعزل عن سراديب السياسة الدولية والعرض والطلب فيها. وهكذا ما إن انهزم الخميني وفشل المشروع الإنكليزي وحلفاء في الغرب حتى ظهر على المسرح الأميركان وأتباعهم من العرب. ولا بد من سائل يطرح سؤالاً:

لماذا يكره الخليجيون العرب نصر العراق الناجز؟ أو لماذا يكره الخليجيون العرب وكذلك النفطيون العرب عراقاً قوياً أو مصر قوية أو يمناً قوياً أو أي قطر عربي آخر في المشرق العربي كالسعودية مثلاً قوياً؟

بينما هم لا يكرهون إيران قوية أو تركيا قوية وحتى «إسرائيل» قوية؟ هذا تساؤل مشروع ولكنه تاريخي ومعقد وأنا لا أستطيع أن أوفيه حقه من التبيان ولكن هناك مداخل أساسية يمكن السير على هديها. أولاً علينا أن نأخذ في حسابنا أكثر من قرن من الزمان تمرغت فيه منطقة صحراوية واسعة وشعب صغير فقير ليس لديه مما وصلت إليه الحياة في حينه إلا القليل القليل، تمرغت في وحل الاستعمار الإنكليزي صاحب استراتيجية التجزئة والتفتيت وسياسة فرّق تسد وتسعير العداوة بين العشيرة والعشيرة والأخ وأخيه الاستراتيجية التي خلقت واقعاً قل نظيرة في العالم في مناخ إقليمي شديد الركود عديم المنافسة. هذا الواقع الفقير مادياً، الفقير معرفياً الذي كانت تقوده بريطانيا في أدق جزئياته حتى ظهور النفط على سواحله وازدهاره بداية الخمسينيات من القرن العشرين. وحتى يكون القارئ على بيّنة من الواقع في بعض نواحيه، نذكر أن الشيخ شخبوط آل نبهان شيخ إمارة أبو ظبي في ذلك الحين، كان يضع المال الذي تعطيه إياه شركات النفط في قماش يضعه تحت فراشه ويرفض أن يفتح بنكاً يضع فيه هذا المال. هذه الثروة التي نبعت من الأرض ولم تهبط من السماء كان لها تأثير بالغ على التطور والتكون الاجتماعي والفكري، أهمه الحرص والخوف على هذه الثروة. هذا في ميدان الاجتماع والتطور الحضاري. أما في ميدان السياسة فقد قال (تشرتشل) إن نقطة من النفط تساوي نقطة من الدم. وهذا القول لرجل مثل (تشرتشل) هو قول مانع قاطع لا يمكن الإضافة إليه أو الإشارة إلى عمق

مدلوله في ذلك الحين. وهذا الفهم لأهمية النفط رتب على بريطانيا العظمى العمل على الاحتفاظ بالسيطرة الكاملة على هذه المادة الحيوية لخدمة مصالحها الاقتصادية وأهدافها الحيوية، وقد فعلوا ذلك في أهم ميدانين، الميدان العالمي والميدان الداخلي، في مواقع النفط ودوله. ففي الميدان العالمي أفهموا الاتحاد السوفياتي في (يالطا) أن أية محاولة للاقتراب من منابع النفط تعني الحرب، وقد فهمها الاتحاد السوفياتي وبقي ملتزماً بها من (ستالين) مروراً بـ(بريجنيف) حتى (غورباتشيف). أما الميدان الثاني وهو ميدان منابع النفط ذاتها، فقد خلقوا واقعاً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ملتزماً بسياساتهم أميناً على مصالحهم غير قادر على الفكاك منها لم تستطع أية دولة من دول النفط الخروج عليه حتى نهاية القرن العشرين. ولقد توافق استخراج النفط على نطاق واسع وازدهاره وصعود تيار القومية العربية بعد الحرب العالمية الثانية وقيام دولة «إسرائيل». ونما هذا التيار وأصبح قوياً بعد انقلاب ٢٣ يوليو في مصر وتوج مدّه بقيام الوحدة بين مصر وسورية. ومن بين الشعارات التي طرحها هذا التيار شعار (نفط العرب للعرب) وكلنا يتذكر العداء الشديد بين هذا التيار القومي والاستعمار البريطاني الذي يعتبر مسؤولاً مسؤولية مباشرة وكاملة عما حدث في فلسطين. شعار (نفط العرب للعرب) أرعب أهل النفط، وأنا هنا لا أقول أن طرح هذا الشعار كان خطأ خدم سياسة المستعمرين. كلا، فالتزام أهل النفط باستراتيجية سادتهم مطلقة أثبتت الأحداث المتتالية خلال النصف الأخير من القرن العشرين عمق ثباتها ولا يمكن أن يزيدها عمقاً أو يعبّر عن حقيقتها شعار هو موضوعياً صحيح وأساسي بالنسبة لأيديولوجية هذا التيار. تيار القومية العربية، الذي تحول من كم إلى كيف حين قيام الوحدة بين مصر وسورية، جعل رؤيا أهل النفط تتحدد بأن الخط على واقعهم ووضع الأمور في نصابها وتوزيع ثروة العرب على كل العرب يأتي من القومية العربية التي تدعو إلى الوحدة العربية وليس من أي أيديولوجية أخرى أو قوة أخرى خارج قوة الغرب، وخصوصاً بريطانيا وأميركا، كونهم عرباً وشعوبهم عربية، فهناك مشروعية لهذه الدعوى ومن هذا المنظور أصبح عداء أهل النفط للقومية العربية ودعوتها عداء لا يساويه عداء لأي فكر ولا لأية دعوة، وقد انسحب هذا العداء إلى أبعد من مداه فصاروا ضد أي واقع عربي (قوي بذاته) إلى أن أصبحوا عوناً مطلقاً للمستعمرين علانية وعلى رؤوس الأشهاد على أبناء جلدتهم ودينهم دون مبررات تمس أنظمتهم ومصالحهم. هكذا تعاونوا مع الأعداء لهزيمة مصر عبد الناصر وهكذا عملوا على هزيمة عراق صدام حسين في أشرس عدوان على هذا البلد الذي واجه وحيداً أعتى القوى، والذي وضّح وفضح أدق الجزئيات والتفاصيل لأهداف الإنكليز والأميركان والصهيونية. والعدوان في النهاية لا يستهدف العراق فقط وإنما العرب.